البينية النحوية العقائدية

في القرآن الكريم

د. مجدي محمود رشاد*

لقد كتب كثير من الباحثين في أثر النحو في علوم الشريعة من فقه وحديث وتفسير.

كذلك أخذ علماء اللغة يتبنون فكرة التكامل في العمل اللغوي بغية الوصول إلى النظم اللغوي، فعلوم اللغة تتعاضد وتتكاتف ؛ حتى تظهر اللغة على أنها نظام كلى تتركب من عدة أنظمة جزئية متداخلة بعضها مع بعض بروافد بينية شديدة الارتباط. والفصل بين تلك الأنظمة اللغوية الجزئية غير سائغ إلا لحاجات البحث والدراسة التخصصية التي تقتضى طبيعتها معرفة الحدود الفاصلة بجوار التداخلات البينية .

تلك البينية التي هي إحدى ظواهر اللغة عامة والعربية خاصة ؛ حيث تتجلى البينية في لغتنا العربية في أعلى درجاتها من التجلي للبينية في الصرف العربي أكثر من غيره من المستويات العربية الأخرى الصوتية والنحوية ... إلخ

* أستاذ النحو والصرف المساعد بكلية اللغات والترجمة– جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا.

في التركيب النحوي:

بما في ذلك الإعجاز الصوتي ائتلافًا مع البلاغة الصوتية آنذاك؛ فجاء الإعجاز الصوتي في القرآن متمثلاً في:

أ . الحروف

ب . الصيغة

جـ . التركيب

أ . الحروف :

فالحرف له جرس صوتي خاص به بين بقية الأصوات؛ فالحروف المقطعة في بدايات بعض السور القرآنية تمثل مفاتيح نغمية لأحداث تلك السورة والتي تتكرر في ثناياها تلك الحروف محدثة جرسًا موسيقيًا خفيًا نحو سورة ق , ن...

فسورة ق مثلاً قد افتتحت بحرف القاف، وتردد في ثنايا السورة كثيرًا حرف القاف، وهو من حروف الجهر الشديدة وأحد حروف القلقلة الاهتزازية ذات الانفجار المدوي التي بنيت عليها آيات السورة التي تحمل معني الشك والتكذيب والتقلب الحاصل عند اعتقاد المشركين، وكذلك آيات السورة التي تحمل دلالات القيامة المروعة ذات الدوي والاهتزاز الذي يقلب الأمور ويقلقلها. وساعد على ذلك التوظيف الصوتي لتلك المعاني حروف القلقة (قطب جد) التابعة لقلقلة القاف. تلك القلقلة السائدة عبر الفواصل القرآنية لتلك السورة والتي تتألف مع انتشار القاف داخل أغلب الآيات التي تحمل ألفاظ :

" القرآن . الخلق . القول . قريب . تلقى . رقيب . قريب . ألقى . القرآن . فقال . تنقص . الحق . فوقهم . ألقينا . باسقات . رزقًا . قبلهم . فحق . بالحق . خلق . خلقنا . أقرب . يتلقى المتلقيان , قعيد . قول . رقيب . بالحق . لقد . قال قرينه . ألقيا . فألقياه . قال قرينه . وقد قدمت . القول . نقول . نقول . تقول . للمتقين . قرن . فنقبوا . قلب . ألقى . خلقنا . يقولون . قبل . قريب . بالحق . تشقق . يقولون . بالقرآن "

فحرف القاف له جرسه الخاص به الذي يمكن توظيفه حسب المعنى المراد من بين أصوات الحروف التي لكل منها خاصة تكتسب من الاستعمال بأن يأتي مسموع الأصوات حذوًا لمحسوس الأحداث، والعبرة بإشعار الصوت بالحدث وتصويره للدلالة المرادة عن طريق حكاية صوته. وللجرس صلة قوية باتساق جرس الفاصلة القرآنية مع أحداث آيات الذكر الحكيم .

وهذا يتضح لنا في قوله تعالى " وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همسا " فصوت السين المنون في تلك الفاصلة ذات الصوت المهموس به إيحاء بالصمت المشوب بالذهول حين يساق الخاشع لمالك يوم الدين .

غير أن صوت السين في الفاصلة القرآنية السابقة كان منونًا فإذا ما استمعنا إلى صوت السين المتحرك أو المسكوت عليه في إحدى السور القرآنية كسورة الناس التي تكرر فيها هذا الحرف طوال الآيات التالية الذكر " قل أعوذ برب لناس ؛ ملك الناس ؛ إله الناس ؛ من شر الوسواس الخناس؛ الذي يوسوس في صدور الناس ؛ من الجنة والناس "

فإن تكرار حرف السين ذي الصوت الصفيري الرخوي المهموس يتوافق مع الجو الذي تصوره السورة من الوسوسة والهمس الخفي حالة الوسوسة

الشيطانية الخفية غير المميزة الشبيهة بصوت الريح الخفيف حين تخلله للأشجار وصوت الحلي حين تتحرك ؛ ففيه تزيين وإغراء وهمس خفي. فوسوسة الشيطان خفية غير واضحة ولا مميزة بل تتسلل إلى صدور الناس تسللاً خفيًا غير مدرك إلى حد أن الإنسان لا يستطيع أن يفرق بينها وبين نفسه.

فإذا ما ابتعدنا عن الجرس الصوتي لحرف السين بما يحمل من إيحاءات إلى انتشار ذلك الصوت بوصفه أحد الأصوات الخفيفة النطق فانتشر في هذه السورة بل القرآن عامة بل اللغة عامة عن أصوات أخرى أقل استخدامًا كالأصوات الحلقية الثقيلة النطق .

ويعزز ذلك أيضًا قول الرافعي عن السبب في إعجاز أصوات الذكر الحكيم: "لأن تتابع الأصوات على نسب معينة بين مخارج الأحرف المختلفة هو بلاغة اللغة الطبيعية التي خلقت من نفس الإنسان"[1]

وأيضًا مما يبين الأهمية الجمالية للصوت اللغوي ما تحدثت عنه تصنيفات البلاغة القرآنية عن البلاغة أو الجمال الصوتي في اختلاس الحرف نطقًا أو السكتة اللطيفة على ذلك الحرف أو تفخيم ذلك الحرف في تلك اللفظة وترقيق ذلك الحرف في تلك اللفظة، وفي ذلك صلة قوية بما ذكره ابن جني من "أصوات الحرف التي تأتى على سمت الأحداث المعبر بها عنها" [2] كقولهم خضم وقضم ، فالخضم لأكل الرطب كالبطيخ والقثاء .. والقضم للصلب اليابس , نحو قضمت الدابة شعيرها ...

([1]) الإعجاز القرآن للرافعي صـ177 . ط 1 المتبة العصرية . بيرو, الإعجاز الصوتي هنداوي صـ4.

([2]) الخصائص لابن جني جـ2 صـ157 تح محمد على النجار

وجدير بالذكر هنا أن علوم لغتنا العربية نشأت لخدمة القرآن بما في ذلك التوجيه البلاغي لأصوت الذكر الحكيم . حيث تتجلي صلة الأصوات بالبلاغة في التوجيه البلاغي للقراءات القرآنية التي نرى جل اختلافاتها صوتيًا كالاختلاف بالإبدال ... وكاختلاف في التفخيم والترقيق والفتح والإمالة والإظهار والإدغام والهمز والتسهيل والمد والقصر ونحو ذلك.

فإذا ما أردنا أن نبين ذلك بشكل تطبيقي فلنرجع إلى التصنيفات القرآنية الأصيلة التي وصلت إلينا مثل معاني القرآن للفراء204هـ والنكت في إعجاز القرآن للرمانى ت386هـ وإعجاز القرآن لأبى بكر الباقلاني ت403هـ ...إلخ

سنجد أصحاب تلك التصنيفات قد أبانوا بالتطبيق العملي لبيان البلاغة الصوتية لآيات الذكر الحكيم , وتبعهم بعد ذلك المفسرون للقرآن حتى عصرنا هذا في بيان التوجيه البلاغي لأصوات الذكر الحكيم ؛ وخير مثال في ذلك سيد قطب كأبرز المفسرين المحدثين الذين اعتنوا بالبلاغة الصوتية في القرآن.

ب ـ الصيغة :

فإذا ما انتقلنا من الجرس الصوتي للحرف القرآني حسبما أشرنا في سورة الناس عن حرف السين فإننا نجد الجرس ذاته في تناولنا لإحدى أبنية كلمات هذه السورة في قوله تعالى "يوسوس" حيث إن الفعل الماضي "وسوس" من الأفعال الرباعية المضعفة التي تأتي للتكرير نحو: زعزع . قلقل . صلصل . قعقع . صعصع . جرجر . قرقر ... إلخ تأتي على دلالة مشتركة وهي التكرير وهو ما عقد له سيبويه بابًا في كتابه وسماه " ما جاء على مثال واحد حين تقاربت المعاني" وهو ما أخذه ابن جني عن الخليل وسيبويه وتوسع فيه بالتعليل إذ يذكر في باب

(إمساس الألفاظ أشباه المعاني): " ووجدت أنا من هذا الحديث أشياء كثيرة على سمت ماحداه ومنهاج ما مثلاه. وذلك أنك تجد المصادر الرباعية المضعفة تأتى للتكرير، نحو الزعزعة ، والقلقلة ، والصلصلة , والقعقعة ، والصعصعة , والجرجرة, والقرقرة . ووجدت أيضًا (الفعلى) في المصادر والصفات إنما تأتى للسرعة ، نحو البشكى، والجمزى والولقى ... فجعلوا المثال المكرر للمعنى المكرر والمثال الذي توالت حركاته للأفعال التي توالت الحركات فيها" [3]

فنلمح في هذا النص ما بين الأفعال الرباعية المضعفة ومعناها من المناسبة؛ لأن هذه الأفعال بما اشتملت عليه من تضعيف وتكرير تساير ما تدل عليه معانيها من التكرير المشترك بين كلمات تلك الصيغ؛ فيضيف إلى المعنى المعجمي لها معنى آخر تضيفه الصيغة وتدل عليه بشكلها الصرفي فمثلاً الفعل الرباعي " وسوس " في سورة الناس يشعرنا بجرسه بتكرار الوسوسة من الشيطان للإنسان حيث تعددت أصناف الوسوسة وكثر عددها فناسبهم التعبير بأحد الأفعال الرباعية المكررة بـ" وسوس " ليكون أبلغ في الدلالة على تكرار الوسوسة بشتى أنواعها, وأحسسنا بذلك من الجرس الصوتي للفعل "وسوس" المركب من تكرار المقطع "وس" وهذا التكرار الصوتي يشعرنا بعملية الوسوسة بما تشتمل عليه من إلحاح وإغراء مرة بعد مرة.

لذلك اختار الله"يوسوس " في هذا السياق القرآني عن غيرها من البدائل كـ (يتكلم . يتحدث . يخفي . يسر) ومن هنا تأتي كلمة وسوس متناغمة مع ذلك السياق بما لها من دلالات صوتية ومعجمية وصرفيه ونحوية متآزرة

([3]) الخصائص 153/2

وكما ذكرنا سابقًا بأن هناك حروفًا أكثر شيوعًا في اللغة لخفتها فكذلك هناك أبنية صرفية أكثر شيوعًا لخفتها مثل أبنية الثلاثي وهناك أبنية ينعدم وجودها لثقلها الشديد مثل الهخع .

وشبيه بالتعبير القرآني السابق " وسوس " من حيث الجرس الصوتي لحرفي الواو . والسين, والمقطعين الصوتيين (وس + وس) بما في ذلك من إيحاءات صوتية تخدم الدلالة المرادة شبيه بذلك التعبير القرآني الآخر "كبكوا" من حيث الجرس الصوتي لحرف الكاف . والباء، والمقطعين الصوتيين (كب+ كب) بما في ذلك من إيحاءات صوتية تخدم الدلالة المرادة والتي لا تؤديها كلمة "كبوا "إذ إن" زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى " وتلك القاعدة البلاغية نحس بها في كثير من الاستعمالات القرآنية فمثلاً:

الاستعمال القرآني الآتي	أفضل من	الاستعمال الآخر الآتي
غلّقت { يوسف23}	// //	غلقت
تكليمًا {النساء164}	// //	كلما
ترتيل { المزمل4 }	// //	رتل
مقتدر { القمر42 }	// //	قادر
غفار { نوح 10 }	// //	غافر
تواب { البقرة 222}	// //	تائب
اصطبر {طه 132 }	// //	اصبر
يصطرخون {فاطر37}	// //	يصرخون
كبكبوا {الشعراء94}	// //	كبوا
وسوس { الناس 5}	// //	تحدث

زحزح {البقرة96}	// //	بَعُد
عسعس { التكوير 17 }	// //	دخل
زلزل { الزلزلة 1 }	// //	رج

وجدير بالذكر في حديثنا عن البلاغة الصوتية في بناء الكلمة أن نبين البلاغة الصوتية المحسوسة في بناء الكلمة الصعبة الثقيلة النطق لتنافر أصواتها نحو : اثاقلتم , أو لطول لفظها نحو : أنلزمكموها , أو للتشديد الموجود في أحد أصواتها نحو : ليبطّئنّ

فذلك الثقل إنما جاء متسقًا مع دلالة الأحداث. فلفظة ليبطئن المشددة الطاء والنون بما في التشديد من الثقل الذي يزيد من ثقل الكلمة وصعوبة التلفظ بها صعوبةً وتعثرًا شبيهًا بتعثر المتباطئ.

أيضًا نجد الجرس الصوتي ذاته الموحي بالتباطئ من خلال ثقل التلفظ ببنية الكلمة "ليبطئن" في قوله تعالى وإن منكم لمن ليبطئن .. {النساء 72}

جـ . التركيب

فكما وجدنا الجرس الصوتي للحرف ولبنية الكلمة في الآية القرآنية السابقة الذكر"وإن منكم ليبطئن .." جاء الجرس الصوتي بكل أشكاله حرفًا وبنية وتركيبًا متسقًا متآزرًا مع دلالة السياق حسبما أشار إلى ذلك سيد قطب في تذوقه لهذه

الآية قائلاً : ترتسم صورة التبطئة في جرس العبارة كلها . وفي جرس (ليبطئن) خاصة . وإن اللسان ليكاد يتعثر وهو يتخبط، حتى يصل ببطء إلى نهايتها "[4]

وإذا كنا تحدثنا عن الجرس الصوتي الثقيل في التركيب القرآني السابق (..ليبطئن..) فإن هناك أيضًا جرسًا صوتيًا ثقيلاً نابعًا من تنافر الحروف الثقيلة النطق في التركيب القرآني (اثاقلتم) أو نابعًا من طول الكلمة في التركيب القرآني (أنلزمكموها) فإذا تدبرنا ذلك التركيب لوجدناه يضم أكثر من كلمة على النحو التالي

1. الحرف الأول فيها هو همزة الاستفهام

2 . النون التي تلي الهمزة للمضارعة

3. الفعل نلزم

4. المفعول الأول وهو (كم)

5. الواو وهى علامة للجمع

6. المفعول الثاني وهو الهاء

فالناطق لـ" أنلزمكموها " يستشعر تعنت الكافرين في نفورهم الشديد من الدين وحث الحق لهم بتتبع حثيث على إلزامهم بهذا الدين.

ومن خلال ما سبق من حديث عن الثقل الملاحظ في بعض الحروف كحروف الحلق، وكذلك الثقل الموجود في بعض أبنية الكلمات التي بها تنافر بين

([4]) التصوير الفني للقرآن صـ78 .

أصواتها أو لطول لفظها أو التشديد على أحد أصواتها، وكذلك الثقل الموجود في بعض التراكيب اللغوية . من خلال كل ذلك نلاحظ أن التنافر الصوتي أو الثقل الصوتي قاسم مشترك بين الحروف والأبنية والتراكيب قد يخدم الدلالة المطلوبة بتوظيفه بلاغيًا بمراعاة الحال والسياق ...

وكما بينا الترابط في التعبير القرآني بين الجرس الصرفي لـ"وسوس" وجرس الحروف المكونة لذلك البناء الواو . والسين فإنها تأتي متسقة أيضًا مع دلالة تركيب آيات السورة التي يشيع فيها صوت السين خاصة في فواصل الآيات التي تنتهي بـ" الناس " أو " الخناس " بما في ذلك من ألوان بديعية متمثلة في السجع والجناس اللذين يتآزران مع الجرس الصوتي الحرفي والصرفي الخفيفين حتى يشيع في تركيب الآيات كلها جو الهمس بتطريب صوتي.

والحديث بصدد الفاصلة القرآنية يجرنا إلى التحدث عن أثر مراعاة اتفاق الفواصل في الآيات القرآنية على التركيب النحوي؛ نحو التقديم والتأخير في أركان الجملة مراعاة للفاصلة القرآنية كقوله تعالى:"وربك فكبر" بدلاً من قول : " كبر ربك " الذي يكسر الانسجام الصوتي مع حرف الراء في فواصل الآيات, كما أن تقديم المفعول به أبلغ من تأخيره لأن في التقديم حصر وقصر التكبير على الله

ونحو حذف أحد أركان الجملة مراعاة للفاصلة القرآنية كقوله تعالى:"ما ودعك ربك وما قلى" بدلاً من إثبات المفعول به "وما قلاك" حفاظًا على التناسب الصوتي مع "الضحى . سجى " فأدى ذلك إلى الحذف الذي هو أحد مباحث البلاغة بالإيجاز .

ونحو حذف حرف العلة الياء من الفعل المعتل " يسرى " دون أداة جزم في قوله تعالى "والفجر . وليال عشر . والشفع والوتر . والليل إذا يسر " حفاظًا على التناسب الصوتي الذي يؤكد أن الأساس الصوتي حاكم يمكن الاعتماد عليه في توضيح كثير من الترخصات في التركيب النحوي بل في توضيح قضايا لغوية مهما كان فرعها صوتيًا أو صرفيًا أو نحويًا ...

ويتعزز قولنا باعتبار الأساس الصوتي حاكم في توضيح أمر التراكيب النحوية القرآنية من خلال أساليب إنشائية ذات أداء صوتي وتنغيم خاص بها حسبما هو وراد في الآيات التالية :

1. " يوسف أعرض عن هذا " فحذفت أداة النداء لغرض بلاغي وهو قرب المنادى يوسف من قلب المنادي " العزيز "

"ثم أنتم هؤلاء تنطقون " فحذفت أداة النداء على اعتبار " ياهؤلاء " لغرض بلاغي وهو الاستخفاف بالمنادى وعدم تعظيمه إذ في ذكر أداة النداء "يا" تعظيم لشأن المنادى .

والأداء الصوتي المنغم للآيتين السابقتين يبرز دلالة النداء في غياب أداة النداء .

وقد تخرج أدوات النداء عن أصل وضعها (النداء) فتستخدم لأغراض أخرى تحس من سياق الحديث كالتنبيه : نحو قوله تعالى " ألا يااسجدوالله" فأداة النداء جاءت للتنبيه ولم تأت للنداء .

2. " يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه " فحذفت أداة الاستفهام على اعتبار " أيحلفون بالله ؟ " لغرض بلاغي وهو التهكم

– "وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل " فحذفت أداة الاستفهام على اعتبار" أو تلك نعمة تمنها على ؟ " لغرض بلاغي وهو التعجب. والأداء الصوتي المنغم للآتيتين السابقتين يبرز دلالة الاستفهام في غياب أداة الاستفهام

وقد تخرج ألفاظ الاستفهام عن أصل وضعها فيستفهم بها عن الشيء مع العلم بها لأغراض تستفاد من سياق الحديث ودلالة الكلام . أهمها : الاستبطاء : نحو قوله تعالى "وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله " [5]

فالأداة " متى " خرجت عن دلالة الاستفهام إلى دلالة أخرى بينتها سياق الآية بأنه الاستبطاء؛ فإن قام أحد بترتيل تلك الآية التي تحمل أداة والآية الأخرى الخالية من الأداة بأداء صوتي فيه استحضار للدلالة المرادَة . سواء أكانت خبرية أم إنشائية. فقد أحسن التذوق وأجاد البلاغة.

وبناء على ذلك يبرز لنا اتصال البلاغة الصوتية بالأساليب الإنشائية جمعًا لشتات فروع البلاغة, إضافة إلى ما هو معروف بداهة من اتصال الجانب الصوتي بالألوان البديعية كما أشرنا في تحليلنا لسورة الناس التي اجتمع فيها السجع والجناس خدمة لدلالة الهمس بتزيين صوتي .

([5]) البقرة 214

كذلك يمكن الاعتماد على الأساس الصوتي كحاكم في توضيح كثير من أمر التركيب النحوي القرآني خاصة الحذف النحوي كأحد مباحث علم المعاني والمتعلق بأحد فروع علم البلاغة وهو علم البيان خاصة المجاز .

فمثلاً قوله تعالى " وقبضت قبضة من أثر الرسول " بحذف المضاف الذي كان متوقعًا في: وقبضت قبضة من أثر حافر الرسول .

فلقد جاء الحذف النحوي السابق الذي هو أحد مباحث علم المعاني؛ فتخرج لنا صورة بيانية ألا وهي التعبير المجازى . ولقد كان الجانب الصوتي المتمثل في التخفيف النطقي بالحذف هو الحاكم الأساسي لكل من ظاهرتي الحذف كمعاني والمجاز كبيان.

تلك المصطلحات البلاغية التي لم تكن معروفة حين نزول القرآن حيث كان اعتماد السامعين على التذوق بعيدًا عن مصطلحات العلوم التي أتى بها أصحاب التخصصات العلمية. هذا ما كان من أمر الحذف اللفظي أو ما سمي بالإيجاز البلاغي بالقرآن.

ويتأكد رأينا باعتبار الأساس الصوتي حاكم في توضيح أمر التراكيب النحوية القرآنية من خلال الأداء الصوتي خاصة المرتكز على "الوقف والابتداء" في ترتيل آيات من القرآن نحو قوله تعالى :" وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يابني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم " فالوقف قبل لفظ الجلالة" بالله" ثم الابتداء به يجعل الأسلوب قسمًا وحلفًا بالله . أسلوب إنشائي . أما وصل " بالله " بما قبلها يجعلها . جملة خبرية . بعيدة عن الحلف حيث تعلق " بالله" بالفعل السابق

"تشرك". وبذلك يتضح أن الأداء الصوتي المرتكز على " الوقف والابتداء " هو الحاكم في توضيح أمر التركيب النحوي بالآية الكريمة

وإذا ما ابتعدنا عن الارتكاز على "الوقف والابتداء" كأحد خواص الأداء الصوتي في بيان نوع الأسلوب القرآني إلى بيان أثر الأداء الصوتي . بكل خواصه . في التراكيب النحوية القرآنية في إحساسنا بنوع الأسلوب . أهو خبري أم إنشائي؟

فمثلاً في سورة الفاتحة نتلوها بادئين بقول "الحمد لله " فمن الممكن أن نحول هذا الأسلوب الخبري إلى أسلوب دعاء إنشائي بأداء صوتي خاص أترك بيانه للحس وحده أن يتذوقه وينفعل به حالة استحضار أحاسيس الدعاء .

أي أنه قد يأتي ظاهر الأسلوب على أنه خبري ولكنه يفيد معني دعاء إنشائي بأداء صوتي خاص حسبما أشرنا ؛ فمن ذلك قوله تعالى " قتل أصحاب الأخدود " , " قاتلهم الله " , " ويل للمطففين " , " ويل للمكذبين " ...إلخ .

وكذلك قد يأتي ظاهر الأسلوب على أنه إنشائي لكنه يفيد معنى الخبر حسبما أشرنا في قوله تعالى " يااسجدوا لله " . وهنا على القارئ أن يقرأ بأداء صوتي بعيد عن أسلوب الإنشاء حسبما أشرنا في قوله تعالى " وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله". هذا عن حال البلاغة الصوتية في الإسلام المرتكز . حسبما أوضحنا . على القرآن كعامل أساسي , لذا أمرنا النبي . ص . " زينوا أصواتكم بالقرآن".

على أن هناك عوامل أخرى ارتفعت بحال التذوق البلاغي الصوتي متمثلة في الأذان والإنشاد الديني الرخيم وفي الخطب الدينية والحربية الرنانة التي

تحتاج إلى خطيب حسن النطق خالٍ من (التمتمة والفأفأة والعقلة والحبسة والرثة والغمغمة والطمطمة واللكنة والغنة واللثغة ...إلخ من عيوب صوتية)[6] عارفًا بأهمية التوقف قبل وبعد كل فكرة .

فإذا ما تجاوزنا حال البلاغة الصوتية في الإسلام والجاهلية إلى التقدم صوب البلاغة الصوتية في القرن الثاني الهجري حيث بداية انتشار علوم اللغة العربية المبنية على أساس علمي بعيدًا عن الاعتماد فقط على التذوق والإحساس من المستمع، والإبداع من المتكلم للبلاغة الصوتية في طور الفن إلى طور العلم على يد ***الخليل بن أحمد*** أول عالم للأصوات العربية.

إذ إنه بالاطلاع على مقدمة كتابه العين وثنايا التصنيفات العربية الأخرى نجد أن دراسة الخليل للأصوات العربية جاءت على أسس علمية منهجية بناها على الوصف العضوي الفسيولوجي حسب المخارج أو حسب خصائص تلك الأصوات السماعية أو الفيزيائية لذلك فلا غرابة أن نجد مستشرقًا مثل براجشتراسر يصرح بإمامة الخليل وريادته الأولى لعلم الأصوات بقوله :" إن أول من وضع أصول علم الأصوات من العرب هو الخليل بن أحمد , وقد كان علم الأصوات في بدايته جزءًا من النحو , ثم استعاره أهل الأداء والمقرئون , وزادوا فيه تفصيلات كثيرة, مأخوذة من القرآن الكريم"[(7)].

أي أن أصول علم الأصوات بدأها الخليل بتوزيعه الأصوات حسب مخارجها وصفاتها . حيث دفعه إلى ذلك أنه كان قارئًا للقرآن.

([6]) انظر : البيان والتبيين للجاحظ 69/1 تح عبد السلام هارون ط2 دار الجيل . بيروت

([7]) التطور النحوي لبرجشتراسر. ط2. مكتبة الخانجي . القاهرة . 1994م . صـ11

وهذا ما جعل أحد الباحثين في دراسة الخليل في بحث دكتوراه باسم "لغويات الخليل" يتوصل إلى إمامة الخليل للبحث الصوتي في العربية بقوله " إن اهتمام الخليل بن أحمد بمخارج الحروف وصفاتها وخصائصها , واحتكامه إلى الإلف الصوتي في تمييز العربية الأصيل من المولد المبتدع, والمستعمل من المهمل والمتآلف من المتناكر , بل والفصيح من الغث ... كل ذلك يجعله إمام البحث الصوتي في العربية بما لحظه من قواعدها وقوانينها الصوتية وما نقله عنه وعرفه له اللغويون والنقاد والبلاغيون القدامى والمحدثون"[8]

فالأساس الصوتي أدى إلى نشأة تلك العلوم العربية خاصة البلاغة العربية وأخصها بالذكر هنا في مقام الحديث عن البلاغة الصوتية التي كانت مختلطة بمباحث الدراسات اللغوية الأخرى.

تلك البلاغة الصوتية التي لم تظهر كعلم مستقل بأصوله وتحديداته إلا في عصور متأخرة للدراسات العربية أي بعد أن وجدنا أن " بذور الدراسات الصوتية عند العرب قد وضعها الخليل وتعهدها بالرعاية والعناية تلميذه سيبويه ثم نضجت وحان قطافها عند ابن جني"[9]

فإذا ما أردنا أن نؤصل البلاغة الصوتية فعلينا التحدث عن ذلك عند أول علماء الأصوات ألا وهو الخليل ثم تلميذه سيبويه صاحب أول كتاب في النحو والصرف والأصوات إذ جعل للأصوات بابًا خاصًا في آخر كتابه أودع فيه الآراء الصوتية للخليل إضافة إلى الآراء الخاصة بسيبويه .

([8]) لغويات الخليل . السيد الشربينى . ماجستير . آداب عين شمس 1977 صـ89

([9]) فونولوجيا القرآن صـ60

فإذا ما بدأنا في ذلك بآراء الخليل فإننا نراها مبثوثة في كتاب سيبويه وبعض التصنيفات الأخرى. فإذا أردنا تبيان ذلك فحسبنا . في هذا المقام . أن نسوق أمثلة متنوعة تبين إدراك الخليل للبلاغة الصوتية في الحروف وفي بنية الكلمة وفي التركيب النحوي.

فمثلاً : الحرف الزائد في الكلمة يقصد به التوكيد على المعنى ؛إذ ينقل عنه سيبويه في قوله "مررت برجل حسبك به من رجل " " وزعم الخليل أن " به " ههنا بمنزلة هو, ولكن هذه الباء دخلت ههنا توكيدًا كما قال : كفى الشيب والإسلام , وكفى بالشيب والإسلام "[10]

أيضًا تتضح لنا البلاغة الصوتية في حديثه عن حذف حرف التنوين أو النون لعلة بلاغية هي التخفيف على اللسان أو الاستخفاف على حد تعبيره إذ يذكر سيبويه: واعلم أن بعض الكلام أثقل من بعض فالأفعال أثقل من الأسماء لأن الأسماء هي الأول وهي أشد تمكنًا, فمن ثم لم يلحقها تنوين, ولحقها الجزم والسكون ... والنكرة أخف عليهم من المعرفة وهي أشد تمكنًا, لأن النكرة أول ثم يدخل عليها ما تعرف به فمن ثم أكثر الكلام ينصرف في النكرة. واعلم أن الواحد أشد تمكنً من الجمع لأن الواحد الأول ومن ثم لم يصرفوا ما جاء من الجمع على مثال ليس للواحد نحو مساجد ومفاتيح . واعلم أن المذكر أخف عليهم من المؤنث, لأن المذكر أول وهو أشد تمكنًا فالتنوين علامة للأمكن عندهم والأخف عليهم, وتركه علامة لما يستثقلون"[(11)]

([10]) الكتاب لسيبويه 453/1 الأميرية

([11]) الكتاب لسيبويه 756/1 الأميرية

أما مثال البلاغة الصوتية لبنية الكلمة تتضح فيما روي عنه أنه قال: "سمعنا كلمة شنعاء وهي (الهعخع) وأنكر تأليفها , كل ذلك اعتمادًا للخفة وتجنبًا للثقل في النطق"[12]

أما حديثه عن الألفاظ المتلائمة والمتنافرة فذكر" وأما التنافر فالسبب فيه ما ذكره الخليل من البعد الشديد، أو القرب الشديد, وذلك أنه إذا بعد البعد الشديد كان بمنزلة الطفر, وإذا قرب القرب الشديد كان بمنزلة مشي المقيد, لأنه بمنزلة رفع اللسان ورده إلى مكانه, وكلاهما صعب على اللسان, والسهولة من ذلك في الاعتدال, ولذلك وقع في الكلام الإدغام والإبدال"[13]

أما مثال البلاغة الصوتية لصيغة الكلمة فيتضح لنا من كلام سيبويه عن الخليل فهو يقول:[14] هذا باب (افعوعل وما هو على مثاله مما لم نذكره) قالوا خشن وقالوا اخشوشن, وسألت الخليل فقال : كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد, كما أنه إذ قال (اعشوشبت الأرض) فإنما يريد أن يجعل ذلك كثيرًا عامًا قد بالغ.."[15]

([12]) سر الفصاحة لابن الخفاجي صـ112 صبح 1953م

([13]) النكت في إعجاز القرآن صـ88 الرماني . دار المعارف

([14]) الإعجاز الصرفي صـ31

([15]) الكتاب 219/2 ط المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية 1317هـ

أيضًا تتضح لنا البلاغة الصوتية لصيغة الكلمة عند الخليل في حديثه عن التوازن الصوتي داخل الكلمة إذا كانت من الطوال مثل " دهدق " حيث نجد أن التوازن بين طرفيها : (د هـ) +(د ق) قد أكسبها رونقًا وخفف من ثقلها [16]

أما مثال البلاغة الصوتية للتركيب فيتضح لنا من كلام سيبويه عن الخليل أثناء تحدثه عن حذف جزء من الجملة للتخفيف الصوتي ففي قوله تعالى (انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ).

ويذكر قول الخليل: كأنك قلت انته وادخل فيما هو خير لك فنصبته,لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له انته تحمله على أمر آخر فلذلك انتصب. وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام ولعلم المخاطب أنه محمول على أمر حين قال ائته فصار بدلاً من قوله أئت خيرًا لك, وادخل فيها هو خير لك " [17]

أيضًا تتضح لنا البلاغة الصوتية للتركيب عند الخليل في حديثه عن المطابقة التي هي إحدى ألوان البديع إذ يذكر ابن المعتز " قال الخليل رحمه الله: يقال طابقت بين الشيئين إذا جمعتهما على حذو واحد "[18]

أيضًا تتضح لنا البلاغة الصوتية للتركيب عند الخليل في حديثه عن الجناس الذي هو أحد ألوان البديع إذ يذكر الحاتمي في كتابه حلية المحاضرة رأي الأخفش الأصغر (ت315هـ) الذي يعترض على رأي الخليل للتجنيس[19]

([16]) العين 1 / 60, 61

([17]) الكتاب لسيبويه 143/1 ط المطبعة الأميريه ببولاق . مصر المحمية 1317هـ

([18]) البديع لابن المعتز صـ661 دار العهد الجديد

([19]) العمدة لابن رشيق 322/1 . السعادة ط 3

أو الجناس بمعناه الآن .

أيضًا تتضح لنا البلاغة الصوتية للتركيب عند الخليل فيما نقله عنه سيبويه في باب الأفعال في القسم " بقوله :" وسألت الخليل عن قولهم : أقسمتُ عليك إلا فعلتَ ولما فعلت لِما جاز هذا في الموضع, وإنما أقسمت هاهنا كقولك: واللهِ ؟ فقال وجهُ الكلام لنفعلنّ هاهنا ولكنهم إنما أجازوا هذا لأنهم شبهوه بنشدتك اللهَ, إذا كان فيه معنى الطلب"[20]

فقد يلقى الخبر ولا يراد به معناه الأصلي بل يراد به معنى آخر نفهمه من السياق.

فإذا ما انتقلنا إلى ***سيبويه*** تلميذ الخليل فإننا نجده . فضلاً عن تحدثه الأوضح عن قضايا البلاغة الصوتية التي سبقه بها الخليل . قد أفاض في بيان خروج الأسلوب الخبري على مقتضى الظاهر بدلالته على معنى الإنشاء وكذلك العكس بخروج الأسلوب الإنشائي إلى معنى الخبري حيث يكون الحاكم في ذلك هو الأداء الصوتي الخاص بالإنشاء أو الخبر؛ فمثلاً يذكر سيبويه في (باب الأمر والنهي) :" ... وتقول: زيدًا قَطَعَ اللهُ يدَه, وزيدًا أَمرَّ اللهُ عليه العيشَ؛ لأن معناه معنى زيدًا, ليقطعِ اللهُ يدَه, وقال أبو الأسود الدُّؤَليّ:

أميرانِ كَانَا أخَيَانِي كِلاهما .: فكلاًّ جزاه اللهُ عَنّى بما فَعَلْ[21]

([20]) الكتاب لسيبويه 106/3 , الأصول البلاغية صـ116 الخانجي بالقاهرة ط2 . 1977م

([21]) الكتاب لسيبويه 314/1 , 76/2 تح عبد السلام هارون الخانجي بالقاهرة ط 2 1977م

فسيبويه أبان أن الكلام قد يأتي خبرًا أي أنه خال من الأساليب الإنشائية ذات الشكل الظاهر إلا أن هذا الكلام الخبري في ظاهره يراد به المعاني الإنشائية التي تستفاد من السياق والقرائن التي إحداها قرينة الأداء الصوتي .

وأيضًا يذكر سيبويه في (باب حروف الإضافة إلى المحلوف وسقوطها):" وقد تقول: تالله! وفيها معنى التعجب, وبعض العرب يقول في هذا المعنى: لله , فيجئ باللام ولا تجئ إلا أن يكون فيها معنى التعجب ... فأما تالله فلا تحذف منه التاء إذا أردت معنى التعجب, ولله مِثْلُها إذا تَعَّجبتَ ليس إلا "[22]

فسيبويه أبان أن الأسلوب الظاهري للقسم قد يخرج عن معنى القسم إلى معنى التعجب وهذا ما سمي عند البلاغيين اللاحقين بخروج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر إلى معان بلاغية تناسب المقام بمعونة القرائن التي أبرزها قرينة التلوين الصوتي.

وإذا كنا قد أصلنا للبلاغة الصوتية بتسليط الضوء على الإمام الأول للدرس الصوتي الذي وصلتنا آراؤه خلال أول معجم عربي صوتي وهو العين وفي ثنايا كتاب سيبويه وبعض الكتب الأخرى اللغوية أو البلاغية أعنى بذلك الخليل , ثم تلميذه سيبويه صاحب أول كتاب أفراد فيه بابًا للحديث عن الأصوات تحت عنوان " الإدغام " فإنه لا يفوتنا أن نؤصل للبلاغة الصوتية عند أول عالم صوتي صاحب تصنيف خاص للأصوات ألا وهو ***ابن جني*** أول من صنف في الأصوات

([22]) الكتا ب لسيبويه 3/ 497 , 498 تح عبد السلام هارون الخانجي بالقاهرة ط 2 1977م

كتابًا كاملاً أطلق عليه " سر صناعة الإعراب " إضافة إلى حديثه الصوتي في ثنايا تصنيفاته الأخرى .

والحديث عن البلاغة الصوتية عند ابن جني يحتاج إلى بحث طويل وقد تصدى لذلك بالفعل أحد الباحثين في بحث للدكتوراه باسم " البلاغة عند ابن جنى"[23]

واختص البلاغة الصوتية بأبواب خاصة عن الألوان البديعية وخروج الكلام على مقتضى الظاهر... فالبحث عن تأصيل البلاغة الصوتية عند ابن جنى بحث طويل بيد أننا نلقى الضوء على ظاهرة منها أغفلها البحث المذكور غير أنني أحسب تلك الظاهرة أبرز ظواهر البلاغة الصوتية وهي ظاهرة التنغيم ذات الصلة الشديدة بالبلاغة الصوتية لأن التعريف العام للبلاغة بأنها " مطابقة الكلام لمقتضى الحال مع فصاحته " فهو شبيه بتعريف التنغيم بأنه " ارتفاع الصوت وانخفاضه مراعاة للظروف المؤدى فيها أو تنويع الأداء للعبارة حسب المقام المقولة فيه"[24]

وهذا التشابه بين التعريفين يجعل التنغيم كظاهرة صوتية مرتبط بالبلاغة تحت ما يسمى البلاغة الصوتية. تلك البلاغة الصوتية التي تراعي تغاير القوالب التنغيمية لكل من جمل التعجب والاستفهام والنفي والنهي والتأكيد والأمر ...فلكل جملة منها أداء تنغيمي مميز لها عن الأداء التنغيمى لغيرها ولا يجوز الخروج

([23]) ماجستير بكلية البنات جامعة عين شمس للباحث إبراهيم أبو أحمد 1995م

([24]) تمام حسام اللغة العربية معناها ومبناها صـ226 ط2 . القاهرة 1979 م

بالجملة عن قالبها التنغيمي الخاص بها إلى غيره فيؤدي إلى اللحن في الأداء الصوتي المخل ببلاغة الكلام وفصاحته.

وظاهرة التنغيم عند ابن جنى أبتدأها بترديد مثال استدل فيه ابن جني بإشارة سيبويه عن ظاهرة التنغيم إذ يذكر ابن جنى :" ... وقد حذفت الصفة ودلت الحال عليها وذلك فيما حكاه صاحب الكتاب من قولهم : سير عليه ليل وهم يريدون ليل طويل[25]

وكأن هذا إنما حذفت فيه الصفة لما دل من الحال على موضعها. وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل أو نحو ذلك , وأنت تحس هذا من نفسك إذا تأملته.

وذلك أن نقول في مدح إنسان والثناء عليه فتقول : كان والله رجلاً , فتزيد في قوة اللفظ بالله هذه الكلمة, وتتمكن في تمطيط اللام, وإطالة الصوت بها وعليها أي رجلاً فاضلاً, أو شجاعًا, أو كريمًا أو نحو ذلك. وكذلك تقول: سألناه فوجدناه إنسانًا,أو جوادًا،أو نحو ذلك.

وكذلك إن ذممته ووصفته بالضيق قلت: سألناه وكان إنسانًا وتزوي وجهك وتقطبه, فيغني ذلك عن قولك إنسانًا لئيمًا, أو لحِزًا, أو مبخلاً أو نحو ذلك , فعلى هذا وما يجري مجراه تحذف الصفة فأما إن عريت من الدلالة عليها من اللفظ أو من الحال فإن حذفها لا يجوز "[(26)]

([25]) الكتاب لسيبويه 226/1 تح عبد السلام هارون ط2 القاهرة .1982م

([26]) الخصائص 2/ 370. 371 , الفيومي صـ199

وإذا كنت قد اختصصت بترديد النص السابق لابن جنى بالذكر دونًا عن بقية نصوصه الغزيرة التي يبرز فيها ابن جني أهمية التنغيم في الدرس الصوتي أو البلاغة الصوتية؛ فذلك لأن النص المذكور فيه إشارة إلى تأصيل هذه الظاهرة التي أشار إليها سيبويه صاحب الكتاب، ثم جاء ابن جني فأبان وأسهب وأطنب في بيان ذلك بكثرة الأمثلة والإيضاحات التي تبرز " التنغيم " كظاهرة صوتية مرتبطة بالبلاغة تحت ما يسمى البلاغة الصوتية. ففي النص السابق تم الاعتماد في الإيجاز الذي هو أحد المطالب البلاغية على حذف الصفة. وقرينة الأداء الصوتي هي التي سوغت حذف الصفة كما أن التطويح والتطريح واالتفخيم الصوتي في نطق الكلمة يزيد من قوة معنى الكلمة قياسًا على القاعدة البلاغية " زيادة المبني تدل على زيادة المعنى " .

وإذا كان ابن جني في النص السابق قد تلقف إشارة سيبويه إلى حذف الصفة اعتمادًا على قرينة التنغيم ثم توسع في إيضاح ذلك، فأيضًا تلقف الإشارات البلاغية للخليل وتلميذه سيبويه إلى خروج الكلام على مقتضى الظاهر السابق ذكره اعتمادًا على قرينة التنغيم ثم توسع ابن جني في إيضاح ذلك [27]. كذلك تلقف ابن جني إشارة البلاغة الصوتية للخليل الذي تحث عن التجنيس أو الجناس بمعناه الآن والسابق ذكره عند الخليل ثم تجاوز ابن جني في إيضاح أمر الجناس بأن جعل الجناس بين الحروف لا يقل أهمية عن الجناس بين الكلمات[28]

([27]) انظر : الخصائص 2/ 462: 464 ,269/3 تح محمد على النجار ط2 بيروت . 1952م , المنصف 1/ 317 : 318 تح إبراهيم مصطفي ط1 القاهرة 1954م

([28]) انظر : المنصف لابن جني 324/2. 426 مصطفي الحلبي 1954 م

وإذا كنت قد تحدثت عن تأصيل البلاغة الصوتية عند علماء الأصوات الأوائل الذين هم من أئمة اللغويين فذلك لأن الدرس اللغوي سابق في بدايته على الدرس البلاغي الذي خرج من عباءة الدرس اللغوي وأصبح الدرس البلاغي ذا اختصاص ذاتي على يد علماء البلاغة أمثال: (ابن سنان الخفاجي صاحب كتاب "سر الفصاحة" الذي جمع فيهما بين البلاغة والأصوات ,والسكاكي . والرماني والباقلاني .....إلخ من علماء البلاغة) الذين اعترفوا بالأساس الصوتي للبلاغة العربية في تصنيفاتهم البلاغية.

حيث يذكر ***الجاحظ*** ت 255هـ " الصوت آلة اللفظ والجوهر الذي يقوم به التقطيع, وبه يوجد التأليف, ولن تكون حركات اللسان لفظًا ولا كلامًا موزونًا ولا منثورًا إلا بظهور الصوت، ولا تكون الحروف كلامًا إلا بالتقطيع "[29]

وبعد تعريف الجاحظ للصوت الذي يبرز أهميته الأدبية نسوق بشكل تطبيقى اعتناء الجاحظ بالدرس الصوتي في بلاغة الكلام حيث اشترط شروطًا صوتية في فصاحة الكلمة والكلام وهي السلامة من تنافر الحروف في الكلمة ومن تنافر الألفاظ في الكلام بقوله " ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر, وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلا ببعض استكراه فمن ذلك قول الشاعر :

وقبر حرب بمكان قفر :. وليس قرب قبر حرب قبر

وقول أبي البيدأ الرياحي :

([29]) البيان والتبيين 1/ 115

وشعر كبعر الكبش فرق بينه :. لسان دعيٍّ فيٍ القريضِ دخيلُ .

وأما قوله: كبعر الكبش فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرقًا غير مؤتلف ولا متجاور, وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر, تراها متفقة مُلْسًا ولينة المعاطف سهلة, وتراها مختلفة متباينة ومتنافرة مستكرهة, تشق على اللسان وتكده, والأخرى تراها سهلة لينة, ورطبة مواتية،سلسة النظام واستلأموا سلاحهم وتأهبوا للطراد , وترى ألفاظ البحتري كأنها نساء حسان عليهم غلائل مصبغات وقد تحلين بأصناف الحلي [30]

ولا جدال في أن البيان والتبيين للجاحظ أحد التصنيفات الأدبية الذي اشتمل على كثير من قضايا التفكير الصوتي.

فإذا ما انتقلنا بعد البيان والتبيين للجاحظ إلى سر الفصاحة ***لابن سنان*** ت426هـ أي بعد استقلال علم البلاغة عن عباءة اللغويين فإذ بنبتة البلاغة تزهر بعد أن ألقى بذرتها أسلافه الصوتيون اللغويون الخليل وسيبويه وابن جني. تزهر تلك النبتة البلاغية الصوتية كما هو واضح في كتاب " سر الفصاحة" لابن سنان حيث إنه عقد في مقدمة كتابه فصلاً عن الأصوات لأنها أولى المداخل للحديث عن الفصاحة. وذكر ابن سنان الخفاجي شروطًا للحكم على جودة اللفظة المفردة, وهذه الشروط مبنية على الأساس الصوتي للفظة الذي "أخذه عن الخليل"[31] إذا يرى ابن سنان :

([30]) المثل السائر 278/1 تح د. أحمد الحوفى , د. بدوى طبانة ط2 1983م

([31]) انظر المزهر للسيوطى 193/1 تح محمد أبو الفضل إبراهيم

1) أن يكون تأليف تلك اللفظة من حروف متباعدة المخارج , باعتبار أن وقْعَ الألفاظ على السمع يشبه وَقْعَ الألوان على البصر , ولا شك في أن الألوان المتباينة إذا جُمِعَت كانت في المنظر أحسن من الألوان المتقاربة, لقرب ما بينه وبين الأصفر,وبُعْد ما بينه وبين الأسود .

2) أن تجد لتأليف اللفظة في السمع حُسْنًا ومزيَّة على غيرها وإن تساوتا في التأليف من الحروف المتباعدة, كما أنك تجد لبعض النغم والألوان حُسْنًا يتصور في النفس,ويدرك بالبصر والسمع دون غيره, مما هو من جنسه.

3) أن تكون الكلمة غير متوعِّرة ولا وحشية .

4) أن تكون الكلمة غير ساقطة ولا عامية .

5) أن تكون الكلمة جارية على العُرْف العربي الصحيح, ويدخل فيه كل ما لا ينكره أهل اللغة, ولا يرده علماء النحو من التصرف الفاسد في الكلمة.

6) ألا تكون الكلمة قد عُبِّر بها عن أمرٍ آخر يُكْرَهُ ذكره, فإذا وردت وهي غير مقصود بها ذلك المعنى قبحت, وإن كملت فيها صفات الحسن الأخرى .

7) أن تكون الكلمة معتدلة غير كثيرة الحروف, فإنها متى زادت على الأمثلة المعتادة المعروفة قبحت, وخرجت عن وجه من وجوه الفصاحة[32].

فإذا ما تركنا حديث البلاغيين عن فصاحة الكلمة أو الكلام الذي هو صدى من أصداء التفكير الصوتي عند الخليل فإننا نجد أن البلاغيين التاليين كل منهم عقب الآخر في تصنيفاتهم قد أدركوا الأساس الصوتي للبلاغة العربية .

([32]) سر الفصاحة لابن سنان صـ64 .92 دار الكتب العلمية . بيروت 1982م

أمثال ***الرماني*** ت386هـ صاحب النكت في إعجاز القرآن.

أيضًا ***أبو بكرالباقلاني*** 403هـ صاحب كتاب إعجاز القرآن .

أيضًا ***السكاكي*** ت626هـ صاحب كتاب مفتاح العلوم الذي قام فيه بتشقيق العلوم وتقسيمها إلا أنه أدرك الأساس الصوتي لها فاستهل مؤلفه بحديث صوتي .

وتتمة ذلك أن البلاغيين عبر تصنيفاتهم المتعاقبة قد بنوا صناعتهم على أساس صوتي من حيث مخارج أصوات حروف الكلمة وتآلفها وسهولة مخارجها , وحديثهم عن الجملة بأنها تنتهي بمعنى يحسن السكوت عليه تحت حديثهم عن الفصل والوصل . على أن حديث البلاغيين القدامى عن حسن الصوت في الكلام أو قبحه بما يعرف بالفصاحة في الكلمة والكلام وحديثهم عن الخاصية الموسيقية للألفاظ ودراستهم للسجع والتكرار والجناس .... إلخ كمصطلحات صوتية لألوان البديع ففي ذلك اعتراف بالأساس الصوتي للبلاغة العربية . وهكذا نرى أن علماء العربية على تعاقبهم كانوا على وعي بأهمية الأصوات لغيرها من علوم العربية . ولم يكن التفكير الصوتي بارزًا عند أسلافنا فقط من أصحاب التصنيفات البلاغية بل تنبه المحدثون إلى التفكير الصوتي ففي تصنيفاتهم الحديثة المسرحية والإيقاعية عبارات صوتية مثل : الموسيقى الخارجية والموسيقى الداخلية, وكلمة عذبة النغمة وجملية الإيقاع وحلوة النبر وقوية الجرس , وموسيقى الشعر وموسيقى النثر ...إلخ من عبارات صوتية تحتاج إلى دراسة صوتية تترجم تلك الأحاسيس الفنية إلى علم ذي أساس صوتي.

خاتمة

ما يقدمه البحث من توصيات ويراه من مقترحات فعلى النحو التالي:

أوصي بالاهتمام بالنبر إذ يحجم الباحثون عنه؛ لحداثته وعدم استقرار تقعيداته حتى الآن، ولأنه يعتمد في إدراكه على الحس الفسيولوجي النطقي والسمعي، بخلاف الجوانب اللغوية الأخرى النظرية.

وإذا أردنا تطبيقه تراثيًا على اللغة العربية الفصحى فلنتجه صوب النص القرآني لأنه أدق النصوص التراثية المنطوقة التي حافظ القرّاء قدر المستطاع على أدائه النطقي كما أنزل في عهد النبوة.

وأرجو أن لا يجرنا تعصبنا لأسلافنا اللغويين في أن نحاول إثبات دور أكبر لهم في ذلك البحث المحدث الذي لازال في طور بدايات التقعيد له.

هذا بخصوص النبر أما بخصوص التنغيم فأرجو التشديد على تمثيله في اللغة المكتوبة بأدوات إفهام وتدليل كتابية تعبيرًا عن الأداء الصوتي كعلامات الترقيم التي يتهاون البعض في كتابتها, كما أرجو أن يأخذ ذلك الأداء النطقي ذو التقعيدات المحدثة حظًا من الإشارة إليه في التعليم المدرسي.

ثانيًا : أوصي بالوقوف على الاختلافات الصوتية في المخارج أو الصفات لبعض الحروف بين المعاجم القديمة كمعجم العين، والمعاجم الحديثة كالمعجم الوسيط أو الدرس الصوتي الحديث.

فأوصي بالوقوف على هذه الاختلافات لندرك التطور الصوتي الذي حدث لهذه الأصوات.

كذلك أوصي الدرس الصوتي الحديث بالاعتماد على الصناعة المعجمية في تأصيل التطور الصوتي الذي حدث لأحد الأصوات بأن له أصلاً في اللهجات القديمة حسبما هو مدون عند أسلافنا من أصحاب المعاجم القديمة.

كذلك أوصي الصناعة المعجمية الحديثة ألا تعتمد اعتمادًا كليًا على المعاجم القديمة في نقل الجانب الصوتي لأسلافنا فقط دون الإشارة إلى آخر اختلافات الدرس الصوتي الحديث معه.

كذلك أوصي أن تجمع الآراء الصوتية المبثوثة في المعاجم لأصواتيين كالخليل فهناك آراء بالمعاجم للخليل بن أحمد مأخوذة بعيدًا عن العين فمن الممكن تجميع آراء الخليل بن أحمد الصوتية من معجم لسان العرب أو غيره وجعل تلك الآراء في سفر واحد مخصصة للخليل.

كذلك أوصي أن تتجه أبحاث الباحثين إلى استخراج القضايا الصوتية بالمعاجم العربية وتحقيقها ودراستها بإلقاء الضوء على الدرس الصوتي الحديث ومدى توافقه مع الدرس الصوتي بالمعاجم.

كذلك أوصي أن يتم عمل معاجم متخصصة في الأصوات مستخلصة من المعاجم الموسوعية.

كذلك أوصي الصناعة المعجمية الحديثة أن تزيد من التجسيد الصوتي النطقي لأبنية اللغة المعجمية المرئية المكتوبة بأن تدخل رموزًا للنبر والتنغيم إضافة إلى أن المعجم العربي يقدم تهجئة الكلمة بشكل سهل بعيدًا عن الخلط؛ كالقول" كذا بالحاء المعجمة حتى يبين أن التلفظ بالخاء وليست بالحاء المهملة. كذلك يحدد ضبط الكلمة بالشكل أي رموز الحركات، أو الضبط بالشرح التفصيلي؛كالقول: كسر الأول وضم الثاني وفتح الثالث. كذلك يحدد ضبط الكلمة بذكر أوزان صوتية لكلمات متطابقة في الوزن؛ كالقول بأن مئاءة كنمّامة على وزن فعّالة.

كذلك أوصي بالاعتماد على الصناعة المعجمية الذاخرة بالآراء الصوتية الخاصة باللغة العربية التي تحكم على الألفاظ بأنها عربية الأصل أم أعجمية أم دخيلة أم مولدة.

أوصي بتأصيل البلاغة العربية من أسلافنا اللغويين أمثال: الخليل، وسيبويه، وابن جني؛ لتأكيد التواصل بين علوم اللغة العربية ، ولتأكيد الأساس الصوتي للبلاغة العربية عند هؤلاء السلف الأصواتيين.

أوصي بالاتفاق على المصطلحات الصوتية البديعية، والبعد عن تخبط المصطلحات الصوتية البديعية، حيث نجد هناك مصطلحًا بديعيًا واحدًا بعدة مفاهيم كـ(المطابقة . المغاير . المماثل . المضارع . التصريف . المجانس . المناسبة . التلفيق).

كذلك نجد مصطلحات بديعية صوتية متعددة لمفهوم واحد كـ (اتفاق الصوائت . والصوامت . اختلاف الصوائت . تجاوز المتجانسين . اتفاق المركب خطًا. اختلاف المركب خطًا..."

أوصي بأن نعتني بالمحسنات المعنوية بقدر اهتمامنا بالمحسنات البديعية اللفظية, وبالإيقاع الخفي بقدر اهتمامنا بالإيقاع الظاهري .

أوصي أن نربط بين الحروف المقطعة في بدايات بعض السور وأحداثها إذ إنها تمثل مفاتيح نغمية لأحداث تلك السور.على غرار اتساق جرس الفاصلة القرآنية مع أحداث آيات الذكر الحكيم.

أوصي ألا نأخذ آراء لغوية برمتها ونحكمها في النص القرآني كالقول بأن الأداء الصوتي التنغيمي يتحكم في بيان نوع الأسلوب أهو خبري أم إنشائي؟؛ فإن تطبيق ذلك صعب في التراكيب النحوية القرآنية؛ لأننا محكومون بأحكام تلاوة تسري على الأساليب القرآنية كلها لا تفرق بين أسلوب خبري أو إنشائي . بيد أني

أرى الضابط في هذا الأمر هو الإحساس والتذوق الشخصي بعيدًا عن التغيير في ترتيل النص القرآني؛ فمثلاً في سورة الفاتحة نتلوها بادئين بقول:" الحمد لله " فمن الممكن أن أتذوق هذا الأسلوب الخبري على أنه أسلوب دعاء إنشائي أترك بيانه للحس وحده أن يتذوقه وينفعل به حالة استحضار أحاسيس الدعاء. وإذا كان الباحثون ذكرو بعض آيات قرآنية استشهادًا على الآراء التنغيمية ؛ فعلى فرض أن ذلك جائز كأمثلة بحثية افتراضية، أو كأمثلة تعليمية بعيدًا عن محراب التعبد بها.

المراجع

إعجاز القرآن للرافعي صـ177 . ط1 المتبة العصرية . بيرو , الإعجاز الصوتي هنداوي.
البديع لابن المعتز صـ661 دار العهد الجديد .
البيان والتبيين للجاحظ 69/1 تح عبد السلام هارون ط2 دار الجيل . بيروت
التصوير الفني للقرآن، سيد قطب، دار الشروق
التطور النحوي لبرجشتراسر. ط2. مكتبة الخانجي . القاهرة . 1994م . صـ11
الخصائص لابن جني جـ2 صـ157 تح محمد على النجار
سر الفصاحة لابن الخفاجي صـ112 صيح 1953م
العمدة لابن رشيق 322/1 . السعادة ط 3
الكتاب لسيبويه 3/ 497 , 498 تح عبد السلام هارون الخانجي بالقاهرة ط 2 1977م
اللغة العربية معناها ومبناها، تمام حسان صـ226 ط2 . القاهرة 1979م
لغويات الخليل . السيد الشربينى . ماجستير . آداب عين شمس 1977 صـ89
المنصف لابن جني 324/2. 426 مصطفي الحلبي 1954 م
المثل السائر 278/1 تح د. أحمد الحوفى , د. بدوى طبانة ط2 1983م
المزهر للسيوطى 193/1 تح محمد أبو الفضل إبراهيم
النكت في إعجاز القرآن صـ88 الرماني . دار المعارف